أنت والمال في الدنيا

obeikandl.com

obeikandl.com

أنت والمال في الدنيا

زينة المال:

المال هو ما يملكه الإنسان من كل شيء؛ سواء كان مالاً نقدًا أو بيتًا أو أثاثاً أو سيارةً أو أرضًا أو زرعًا أو ماشيةً ونحو ذلك مما يمتلكه الإنسان ويتصرف فيه، والمال زينة الحياة الدنيا التي يحبها كل إنسان، ويسعى جهده إلى امتلاكه، كل بحسب طريقته، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

ويخبر الله عزَّ وجلَّ أن المال من الملذات التي زُيِّنت للناس في هذه الحياة الدنيا؛ قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[3].

ولهذا قال عمر ﷺ: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه.

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

obeikandl.com

وقد أصبح المال هو الحسب الذي يتفاخر به أهل الدنيا كما أخبر النبي ﷺ: «**إن أحساب أهل الدنيا، الذي يذهبون إليه: المال**»[(١)]؛ فالمال فضائل أهل الدنيا التي يرغبون فيها ويميلون إليها ويعتمدون عليها في أمور الحياة كالزواج وغيره، ولا يعرفون شرفًا آخر مساويًا أو مدانيًا له، والواقع يشهد على ذلك حيث إن صاحب المال فيهم عزيز كيفما كان، وغيره ذليل كيفما كان.

والإنسان يَشبُّ على حب المال ويَشيبُ عليه ولا يكتفي منه أبدًا، بل كلما جمع مالاً طمع في غيره، قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»[(٢)]. وكلما تقدم الإنسان في السن زاد حبه للمال، وإن لم يعد بإمكانه الاستفادة منه أو الاستمتاع به فيما تبقى له من العمر؛ قال ﷺ: «**يكبَرُ ابن آدم ويكبَرُ معه: حب المال، وطول العمر**»[(٣)]. وقد يصل الأمر بالإنسان إلى أن يصبح عبدًا للمال لكثرة حرصه وانشغاله معظم وقته في جمع المال، وقد دعا النبي ﷺ على من كان هذا شأنه وديدنه فقال ﷺ: «**تعس عبد الدينار والدرهم**»[(٤)]، أي؛ سقط وهلك أو بُعدًا له.

---

(١) صحيح سنن النسائي، رقم: ٣٠٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يُتقى من فتنة المال.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يُتقى من فتنة المال.

والمال يمكن أن يكون على الإنسان إما نعمة وإما نقمة، بحسب نيته وطريقة تعامله فيه ونظرته إليه، فإن عمل فيه بما يحب الله ويرضاه ويتفق مع الشرع كان له نعمة وثوابًا في الدنيا والآخرة، وإن عمل فيه بعكس ذلك كان عليه نقمة وعقابًا في الدنيا والآخرة.

درجات المال:

لقد خلق الله عزَّ وجلَّ الخلق وجعل لكل إنسان رزقاً معلوماً قد قسمه الله له من فوق سبع سماوات؛ قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس! اتقوا الله وأجملوا في الطلب. فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. خذوا ما حلَّ، ودعوا ما حَرُمَ**»[2]، أي؛ إن لكل نفس رزقها المقسوم لها ولن تموت حتى تستوفي تمامًا ما قُسِم لها من الرزق وإن تأخر عنها أحيانًا، لذلك ترفقوا في سعيكم في طلب الرزق واحرصوا على أخذ ما حل لكم وترك ما حرم عليكم. وقال ﷺ: «**إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله**»[3].

ولم يجعل الله تعالى رزق الناس متساويًا بل جعله متفاوتًا، فوسَّع على هذا، وضيَّق على ذاك، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[4]،

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٧٤٣.

(٣) صحيح الجامع الصغير، رقم: ١٦٣٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧١.

ورفع الله بعضهم فوق بعض درجات؛ فرفع هذا، وخفض ذاك؛ له الحكمة التامة في ذلك، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولو لم يكن الرزق مقسومًا بقسمة قسَّام لا يمكن منازعته لنال المال كل العقلاء والأذكياء، ولم يتركوا شيئًا للجهلاء والأغبياء؛ بل إن ما يدل على أن الرزق بيد الله تعالى أنه قد يجتهد العاقل الذكي في طلب الرزق فلا يحصل على ما يريد ولا يجد مطلوبه، بينما يتيسر ذلك للجاهل الغبي وفي ذلك يقول الشافعي:

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

فلأن التدبير ليس للعباد لذلك تجد عالمًا فقيرًا محرومًا وأحمقًا غنيًا موسرًا، أما الجد والاجتهاد في طلب الرزق إنما يسهل ويحصل بناء على ما قسمه الله تعالى. ولو كان الناس جميعًا أغنياء لما استقامت الحياة، ولما تعاون الناس وتراحموا فيما بينهم، ولما دارت عجلة العمل، ولما خدم الناس بعضهم بعضاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]؛ ومع ذلك فإن رحمة الله بخلقه خير مما يجمع الناس من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

فتنة المال:

إن صاحب المال ليس محظوظًا وسعيدًا وسالمًا من كل مشكلة كما يبدو للعيان، بل هو معرض للفتنة والاختبار في كل لحظة من حياته، والبلاء لا يكون

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

بالشر فحسب بل يكون أيضًا بالخير كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1]؛ فصاحب المال مبتلى بماله أيشكر الله على نعمه أم يكفر؟ قال عزَّ وجلَّ حاكيًا عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[2]؛ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، أي؛ ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، فيختبر الله عزَّ وجلَّ الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

فالمال فتنة عظيمة لمن ملك الكثير منه؛ فالإنسان الذي لم تتداركه رحمة الله تعالى فيتعامل مع المال بما يرضي الله ويؤدي ما افترضه الله عليه من العبادات والطاعات؛ فهو سيلهو بالمال وينشغل به عن عبادة ربه، والمال يجعل الرجل بطرًا أشرًا متكبرًا يتفاخر به على إخوانه من بني آدم، ويعين الرجل على ارتكاب المعاصي، وينشر الفساد في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[4]، أي؛ الأموال والأولاد اختبار وامتحان من الله لكم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أم تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه؛ وأن ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من الأموال والأولاد؛ ولهذا حذَّر الله تعالى عباده المؤمنين من الانشغال بالأموال والأولاد عن عبادته، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا المال خضرة حلوة... من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو. وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**»[2].

والناس في المال أربعة أصناف، قال النبي ﷺ: «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٍ رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي ربه فيه ويصل به رحمه، ويعلم لله فيه حقًا فهذا بأفضل المنازل، وعبدٍ رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهو بأخبث المنازل، وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته فوزرهما سواء**»[3].

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يُحذَر من زهرة الدنيا، والتنافس فيها.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٩٤.

المسلم والمال:

قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي: المال**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إن هذا المال خضرة حلوة، ونِعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة**»[(٢)].

فالمال محمود ومذموم؛ فهو يمكن أن يكون نعم الصاحب والرفيق للمسلم، بشرط أن يأخذه بحقه عن طريق العمل بالحلال، وإنفاقه في سبيل الله تعالى والأعمال الصالحة والعبادات كالحج والعمرة والجهاد، كما قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[(٣)]؛ فهو بإنفاقه للمال لا يستوي مع من لا ينفق؛ قال الله تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ﴾[(٤)]؛ وذلك لأنه أطاع أمر الله عزَّ وجلَّ بالإنفاق كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: فضل النفقة في سبيل الله.

(٣) مسند أحمد، رقم: ١٧٦٩٢، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٥.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ١٠.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[1]. ولأنه قد علم وجوه الانتفاع من ماله في الدنيا فعمل بقول النبي ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[2]؛ فاستخدم ماله في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة التي إذا تيسرت تفرغ القلب للدين والعبادة، وما يتوصل به إلى العبادة فهو عبادة. وكذلك استخدمه في ضيافة الإخوان، وإعانة المحتاج منهم، وإهداء الهدايا إليهم، ودفع أجور الاستخدام في الأعمال التي يحتاج إليها، ولا يستطيع أن يقوم بها بنفسه، أو لو تولاها بنفسه لضاعت أوقاته وما استفاد منها في سلوك الآخرة. وكذلك صرفه فيما يعود إليه بالخير في الدنيا والآخرة من بناء للمساجد والطرق ونحو ذلك مما فيه منفعة للمسلمين.

ولأنه فهم مغزى سؤال النبي ﷺ وجوابه حين سأل ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**»؟ قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»[3]، أي؛ أن ماله الذي ينفقه في وجوه الخير والبر لينتفع به في الدنيا والآخرة هو الذي يضاف إليه في الحياة وبعد الموت ويكون ماله، بخلاف المال الذي يتركه بعد موته فإنه يكون مال الورثة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما قدَّم من ماله فهو له.

ويمكن أيضًا أن يكون المال بئس الصاحب والرفيق للعبد إذا لم يأخذه بحقه عن طريق العمل الحلال بل جمعه من الحرام، أو إذا لم يدفع حق الله فيه من الزكاة والصدقة والإنفاق على ذوي القربى واليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل وغيرهم ممن لهم حق في ماله، أو إذا أنفقه في الحرام؛ أو ألهاه ماله عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فهذا المال لا يبارك الله فيه، ويوم القيامة يشهد على صاحبه بما يؤدي به إلى العقاب.

ويمكن للمال أيضًا أن يجعل الإنسان من إخوان الشياطين فيما لو ارتكب العبد ما نهى الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[1]؛ والتبذير هو الإنفاق في غير حق، فالمبذر من أشباه الشياطين، والشيطان كافر جاحد منكر لنعمة الله عليه و لم يعمل بطاعة الله تعالى بل أقبل على معصيته ومخالفة أمره، وهكذا يكون المبذِّر؛ فبئس الصاحب والرفيق المال الذي يجعل من صاحبه هكذا.

وقد أباح الإسلام للمسلم أن يأخذ المال الذي يأتيه من جهة يعلم أن مالها حلال، ولكن بشرط أن يكون غير سائل له، ولا متطلعًا إليه حريصًا عليه؛ فقد قال النبي ﷺ: «**إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**»[2]، وما لم يوجد فيه هذا الشرط فلا تعلق

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس.

النفس به؛ فإذا أخذ المسلم المال بسخاوة نفس من غير سؤال بارك الله له فيه، أما إذا أخذه بإشراف نفس وحرص عليه فلن يبارك له فيه، كما أخبر النبي ﷺ: «**إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع**»[(١)].

إن كل مسلم أعطاه الله من فضله ورزقه المال معرض للبلاء والمصائب في ماله لما في ذلك من الحكمة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾[(٢)]، فأخبرنا المولى عزَّ وجلَّ أنه تعالى يبتلي عباده بذهاب بعض الأموال وربما معظمها أو كلها امتحانًا لصبرهم وتقواهم كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(٣)]؛ فجعل الله تعالى الصبر والتقوى عند وقوع المصيبة في المال والنفس من أقوى الأمور، ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٤)]؛ فالذين يصبرون عند الصدمة الأولى

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

ويسترجعون لأنهم علموا أنهم ملك لله يتصرف فيهم بما يشاء وأنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة واعترفوا بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]؛ وليس هذا فحسب بل أخبر النبي ﷺ أنهم إذا دعوا الدعاء المناسب عند وقوع المصيبة فإن الله تعالى يخلف عليهم ويعوضهم خيرًا مما أصيبوا به في أموالهم أو غير ذلك؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ إلا أخلف الله له خيرا منها**»[2].

أما سبب الابتلاء في المال فيمكن أن يكون لاختبار من يدَّعي الإيمان ويخطط لدخول الجنة، لأن الجنة ليست لكل من هب ودب وزعم أنه مؤمن، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[3]، فالإيمان ليست كلمة تقال باللسان، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾[4]،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢-٣.

وتعد الزكاة إحدى وسائل اختبار إيمان العبد؛ فالصادق في دعوى الإيمان يُخرج زكاة ماله ويدفعها للمستحقين، أما الكاذب في دعوى الإيمان فيمتنع عن دفع الزكاة ويبخل بها؛ وقد بشَّره الله بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

ويمكن أن يكون سبب الابتلاء لتطهير العبد من الذنوب والخطايا حتى يلقى الله وما عليه خطيئة كما أخبر النبي ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»[2]؛ وهذا من رحمة الله بالعبد وحب الخير له؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة**»[3]. وقد يكون الابتلاء في المال أعظم من هذا فيكون الجزاء أيضًا أعظم؛ وهو أن يُقتل العبد وهو يقاتل عن ماله فيكون شهيدًا، قال ﷺ: «**من قُتِل دون ماله فهو شهيد**»[4]؛ ومعلوم أن الشهيد هو الوحيد الذي يتمنى الرجوع إلى الدنيا ليُقتل مرة أخرى لما يرى من كرامة الشهيد عند الله عزَّ وجلَّ، قال رسول

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤-٣٥.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٥٧.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: من قاتل دون ماله.

obeikandl.com

الله ﷺ: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة**»[1].

لقد حث الإسلام على القناعة بالرزق، وأن لا ينظر المسلم إلى من هو فوقه في المال والخَلق، ومن ذلك الأولاد والأتباع وكل ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا، بل ينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضِّل هو عليه فإنه أحق أن لا يحقر نعمة الله عليه؛ فقال النبي ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّلَ عليه**»[2].

بل أمر النبي ﷺ بالنظر إلى من هم أسفل ونهى عن النظر إلى من هم فوق فقال ﷺ: «**انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله** -قال أبو معاوية:- **عليكم**»[3]؛ قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ولا ينظر إلى من هو فوقه.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص: ٩٧/١٨.

ولذلك كان من الأفضل للمسلم إذا أراد أن ينظر إلى من هو فوقه أن ينظر إلى من هو فوقه في الدين فيجتهد للحاق به فيكون أبدًا في زيادة تقربه من ربه وترفع له درجاته في الجنة، ويتفضل الله عليه في الدنيا فيما فيه خير له في الدنيا والآخرة. ومن الأفضل للمسلم أن ينظر إلى من هو أسفل منه في الدنيا؛ فمهما كان مستواه المالي ضعيفًا فسيجد من هو أضعف منه في المستوى المالي وعندها سيعلم أن الله قد أنعم عليه وفضَّله على كثير من الناس من غير أن يكون له خاصية في ذلك، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فيلزم نفسه بشكر الله على هذه النعمة فيكون ذلك خيراً له في الدنيا والآخرة، وقد قال النبي ﷺ: «**كن قنعًا تكن أشكر الناس**»[1]؛ لأن العبد إذا قنع بما أعطاه الله رضي بما قسم له، وإذا رضي شكر، وإذا شكر زاده الله من فضله جزاء لشكره، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]؛ فتكون القناعة من هذا المنطلق سببًا لزيادة الرزق والمال.

أما إذا أبى الإنسان إلا أن ينظر إلى من هو فوقه في الدنيا وإلى من هو أكثر مالاً منه فلن يأمن أن يصاب بمرض الحسد الذي يضره ولا يضر المحسود، وليس هناك دواء لهذا المرض إلا ما وصفه له النبي ﷺ وهو النظر إلى من هو أسفل منه في الدنيا فيشكر الله ولا يكفر نعمته. ويروى عن عون بن

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٤٥٨٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

عبد الله بن عتبة قال: صحبت الأغنياء فلم أر أحدًا أكبر همًا مني، أرى دابة خيرًا من دابتي، وثوبًا خيرًا من ثوبي، وصحبت الفقراء فاسترحت. ولهذا كتب عمر بن الخطاب ﷺ هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»[1]؛ والكفاف هو الكفاية بلا زيادة ولا نقص، وقد كان ﷺ يدعو الله عزَّ وجلَّ فيقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»[2]، والقوت هو ما يسد الرمق، وفي الحديث فضيلة التقلل من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك، كما قال النبي ﷺ: «**خير الرزق ما يكفي**»[3]، بل إن القوت يعدل ثلث هذه الدنيا كما يُفهم من قول النبي ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**»[4]، أي؛ من جمع الله له بين عافية بدنه وأمن قلبه وكفاف عيشه فقد جمع الله له جميع النعم التي من ملك الدنيا فكأنما أعطي الدنيا بأسرها.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر والقناعة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر والقناعة.

(٣) مسند أحمد، رقم: ١٦٢٣، وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩١٣.

ومهما كان المسلم صحيحًا معافى في بدنه فذلك خير له من الغنى؛ فقد جاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء فقال له بعض الصحابة: نراك اليوم طيب النفس، فقال: «**أجل والحمد لله**» ثم أفاض القوم في ذكر الغنى. فقال: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى. والصحة لمن اتقى خير من الغنى. وطيب النفس من النعيم**»[1]؛ فقوله ﷺ بأنه لا بأس بالغنى لمن اتقى؛ لأن الغنى بغير تقوى فيه الهلاك والضلال، فهو لا يبالي من أين يأتيه المال وقد يجمعه من غير حقه وينفقه في غير حقه، أما إذا كان الغني تقيًا فقد ذهب البأس وجاء الخير، فهو يجمعه من الحلال، ويصون به نفسه وعرضه، ويحمي به مروءته، ويتقرب به إلى الله بإنفاقه في وجوه الطاعات، وهو حسبه وسلاحه في الزمن العصيب والظرف الشديد؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق...**»[2]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حسب الرجل ماله. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـــ وهو من أغنياء الصحابة ـــ: يا حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

وقوله ﷺ بأن الصحة لمن اتقى خير من الغنى؛ لأن في صحة البدن عون على العبادة، والصحة مال ممدود لا يُقَدَّر، فكم تقبل من المال مقابل ما تملك من أعضاء جسمك الداخلية والخارجية الصحيحة؟ لقد كان لأحدهم مالٌ كثيرٌ من التجارة فكسدت تجارته وخسر كل ما أدخره من المال وأصابه من القلق

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٧٤١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: إنفاق المال في حقه.

والهم ما أصابه حتى أوشك الإيمان أن يطير من قلبه، وفي أحد الأيام رأى رجلاً مقطوع الساقين يجلس على عارضة خشبية ويستعين بيديه ليعبر الطريق، وبعد جهد جهيد وصل إلى الرصيف وابتسم في وجهه ابتسامة عريضة وسلَّم عليه؛ وفي هذه اللحظة أدرك كم هو غني بالنسبة إليه، فله ساقان يستطيع السير عليهما ولا يقبل أن يبيعهما بملايين الريالات فخجل من شعوره الذي قربه من اليأس. فما أقل ما يفكر الإنسان فيما لديه من نعم بدنية لا يرضى أن يبيع الواحدة منها بالملايين، وما أكثر ما يفكر بما ينقصه ولو كان بدراهم معدودة أو بقليل من الدنانير.

فالمريض عاجز، والعاجز كالميت، ولهذا كانت الصحة مع الفقر أغلى بكثير وخير من الغنى مع المرض والعجز؛ فكم من غني ولكنه مريض عاجز وهو على استعداد أن يدفع جميع أمواله مهما بلغت من أجل الشفاء من المرض والحصول على الصحة؟ فالصحة لا تقدر بثمن وهي خير من الغنى والثراء مهما بلغ، وهي أفضل شيء بعد اليقين: «**سلوا الله المعافاة، أو قال: العافية، فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة**»[1].

فعلى الإنسان أن يعد نعم ربه عليه وأن يتفكر بما وهبه الله له من الأعضاء السليمة الخارجية أو الداخلية التي تعمل بمشيئة الله بصورة مستمرة وفق نظام دقيق وما يتمتع به من الصحة والعافية وهو شيء لا يُقدَّر ولا يعدله أموال الدنيا كلها، وبالتالي يشكر الله على هذه الهبات ويقنع بما قدره الله له من رزق ومال فإن الله

(١) مسند أحمد، رقم: ٥، وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح.

تعالى أعلم بحاله وبما يصلح له، والقناعة كنز لا يفنى، وإذا ظهر له أن ما لديه قليل فليعلم أنه لو ملك واديين من الذهب لظهرا له أيضًا أنهما قليلان كما أخبر النبي ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»[1].

وليذكر أنه لو بلغ من الغنى ما بلغ لما استطاع أن يخرق الأرض، أو يبلغ الجبال طولاً، أو يأكل أكثر من ثلاث وجبات في اليوم، أو ينام في أكثر من فراش واحد في الوقت نفسه.

ولا شك أن من يقنع برزقه يعيش سعيدًا راضيًا ناجحًا في حياته، ولا شك أيضًا في أن القناعة والرضا أسهل من الناحية العملية والنفسية من السخط والتذمر.. وإذا بحث الإنسان عن الأشياء التي ترضيه فسيجدها بسهولة أكثر من تلك الأشياء التي لا ترضيه. والقناعة لا تعني العجز أو الكسل وعدم الطموح، فقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ منهما؛ قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**»[2]، ولا تعني الاستسلام للأمر الواقع دون السعي في طلب الرزق والعمل الجاد للنجاح، ولكن تعني القناعة بما رزقه الله تعالى نتيجة سعيه، وإذا أراد المزيد فعليه أن يبذل المزيد من الجهد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يُتقى من فتنة المال.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم: ١٢٨٥.

وقد كان رسول الله ﷺ يخشى على أمته من الدنيا التي ليس لها قدر عند الله ومع ذلك يقتل الناس بعضهم بعضًا من أجلها، قال ﷺ: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[1]. فالتنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه، ويقع الهلاك بسبب أن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك. قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها.

وبيَّن ﷺ عاقبة من تكون الآخرة همه ومن تكون الدنيا همه فقال ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**»[2]. فالغنى الحقيقي هو غنى النفس وليس كثرة المال، قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غنى النفس**»[3]، قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال؛ لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة

(1) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: ١٢.

(2) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٠٠٥.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: الغنى غنى النفس.

حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني.

وقال القرطبي: معنى الحديث إن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنـــزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل. وقال ابن حجر: وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يتنـــزل على غنى النفس، فإن الآية مكية ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تُفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال[1].

قال رسول الله ﷺ: «**اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت؛ والموت خير للمؤمن من الفتنة. ويكره قلة المال؛ وقلة المال أقل للحساب**»[2].

---

(١) فتح الباري للعسقلاني، ص: ١١/٢٧٢-٢٧٣.

(٢) مسند أحمد، رقم: ٢٣٥١٥، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

الكافر والمال:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)، أي؛ يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فيفقر من يشاء، ويغني من يشاء، يضيق على هذا ويقتر على هذا، ويبسط على هذا من المال كثيرًا، وله الحجة القاطعة الدامغة، والحكمة التامة البالغة التي لا يدركها غيره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

نعم؛ فكثير من المسلمين يَشْكل عليهم وضع الكفار فيما يتعلق بما هم فيه من النعم والمال الجزيل بالرغم من كفرهم بالله أو الشرك به، وهذا ليس على مستوى الأفراد فحسب، بل هو أيضًا على مستوى الدول حيث يُطلق على الدول الكافرة الغربية أنها الغنية المتقدمة، ويصنفون الدول الإسلامية ضمن العالم الثالث الفقير المتأخر، ولا غرابة في ذلك فالمسألة في غاية البساطة ما دام لدينا ما إن تمسكنا بهما لن نضل أبدًا وهما كتاب الله وسنة نبيه المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه، فالجواب على سبب غنى الكفار وكثرة النعم والأموال لديهم مع كفرهم بالله والشرك به متوفر في القرآن والسنة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولا غرابة في أن تُشكِل هذه المسألة على المسلمين البسيطين فقد أشكلت على من كان من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٦.

قال: تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدَم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرَظًا مصبوبًا، وعند رأسه أَهَب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: «**ما يبكيك**»؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»؟ [1]. وفي رواية أخرى يقول عمر رضي الله عنه: فدخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف. فسلمتُ عليه... ثم رفعتُ بصري في بيته، فوالله ما رأيتُ فيه شيئًا يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وُسِّع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئًا فقال: «**أوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي» [2].

وما أجاب به النبي ﷺ على تساؤل عمر هو الجواب الشافي الوافي لكل من يرى أنه فقير أو ماله قليل بالرغم من إيمانه بالله وطاعته له ويتساءل عن غنى الكفار وكثرة المال لديهم بالرغم من كفرهم وشركهم بالله أو عصيانهم له تعالى؛ وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [3]،

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثًا..﴾.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

أي؛ اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي، من يشكر ممن يكفر.

لقد خلق الله تعالى الجنة والنار وجعل لكل منهما أهلها الذين يستحقون أن يخلدوا فيها أبد الآباد، فالجنة لا يدخلها إلا المؤمنون الذين شهدوا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وعبدوا الله وأطاعوه وماتوا على ذلك، والنار يدخلها كل من كفر بالله وعصاه ومات على ذلك، ولكنَّ مِنْ عَدْل الله عزَّ وجلَّ الذي يجزي الحسنة بعشرة أمثالها إلى مئات الأضعاف أن يجزي كل إنسان على ما فعل من معروف وإحسان إلى خلقه حتى وإن كان كافرًا.

فهناك صنف من الكفار يعملون المعروف، ويتصدقون على الفقراء، ويصرفون من أموالهم في وجوه الخير والبر، ولكن لأن الجنة محرمة على الكافرين ولا يمكن أن يدخلها الكافر لينال جزاء معروفه وإحسانه فإن الله تعالى يعجِّل له الجزاء في الدنيا التي هي جنته كما أخبر النبي ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1]، حتى إذا صار الكافر إلى الآخرة لم يجد شيئًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]، أي؛ حكمة الله جلَّ جلاله في الكفار أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.

ولهذا نهى الله جلَّ جلاله المؤمن عن النظر إلى أموال الكفار، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1]، أي؛ لا تنظر إلى هؤلاء الأغنياء وما هم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة لنختبرهم فيه وما عند الله خير وأبقى؛ فالمال عند الكافر يكون أيضًا فتنةً واختبارًا له، ثم إن إغداق الله عزَّ وجلَّ الأموال الطائلة على الكافر لدليل على هوان الدنيا عند الله وأنها لا تساوى جناح بعوضة. قال النبي ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[2]؛ فهذا مثل للقلة والحقارة، فلو كان للدنيا أدنى قدر عند الله ما متع الكافر منها أدنى تمتع، فإن الكافر عدو الله والعدو لا يُعطى شيئًا مما له قدر عند المعطي، ولهذا فإن الله عزَّ وجلَّ قد يرزق الكافر المال الكثير ويُطَوِّل له ما هو فيه وما ذلك لكرامته ومعزته عند الله، وإنما يفعل الله به ذلك استدراجًا وإملاء؛ قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[3].

والكافر نفسه أيضًا يفتخر بكثرة الأموال، ويظن أن ما أعطاه الله من الأموال فذلك لكرامته ومعزته عند الله، ويعتقد أن ذلك دليلاً على محبة الله تعالى

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٨٩.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢-١٨٣.

له واعتنائه به، وبالتالي فلن يعذبه الله لأنه تعالى ما كان ليعطيه ذلك في الدنيا ثم يعذبه في الآخرة؛ كما حكى الله تعالى قولهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1]، فردَّ الله تعالى عليهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[2]، أي؛ لقد أخطؤوا وخاب رجاؤهم فليس الأمر كما يزعمون أنهم ليسوا بمعذبين لكونهم أكثر أموالاً وأولادًا، إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإملاءً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[3]؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[4]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾[5].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥-٥٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٥) سورة المدثر، الآيات: ١١-١٧.

بل قد يفتح الله على الكفار كل ما يختارون من أبواب الرزق حتى إذا فرحوا بذلك أخذهم الله على غفلة وقطع دابرهم كما أخبر تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1]. قال قتادة: بَغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

ثم إن هذه الأموال لن تغني عنهم من الله شيئًا ولا تقربهم إلى الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[3]، أي؛ ليست هذه دليلاً على محبة الله لهم ولا اعتنائه بهم، إنما يقربهم عند الله عزَّ وجلَّ زلفى الإيمانُ والعملُ الصالح. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٤-٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٦.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

وقد ضرب الله عزَّ وجلَّ في سورة الكهف مثلاً لمن أعطاه الله مالاً كثيرًا فظلم نفسه بكفره وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، وافتخر على صاحبه وجادله فقال له: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا. ولما رأى ما رزقه الله تعالى من الجنتين وما فيهما من الأعناب والنخل والزروع والثمار والنهر الذي يجري بينهما ظن أنهما لا يبيدا ولا يفنيا أبدًا؛ وذلك لإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وضعف يقينه بالله، وأنكر قيام الساعة، وقال بأنه حتى وإن كان هناك معاد ومرد إلى الله فسيكون له هناك أحسن مما لديه في الدنيا لأنه لولا كرامته على الله ما أعطاه هذا في الدنيا، فوعظه صاحبه المؤمن وزجره عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار، ونصحه بأن يذكر الله حين يدخل جنته ويعجبه ما فيها ويحمد الله على ما أنعم به عليه من المال والولد وأن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم دعا المؤمنُ على جنة صاحبه الكافر بأن يرسل الله عليها العذاب من السماء فتخرب جزاء كفره بالله وجحوده نعم الله تعالى، فوقع بجنة الكافر ما خوفه به المؤمن من الدمار والهلاك وعند ذلك أخذ الكافر يصفق كفيه متأسفًا على ما أنفقه في الجنة ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا.

وقارون الذي آتاه الله من الأموال الكثيرة التي يثقل حملها على مجموعات من الرجال الأقوياء، فقد وعظه قومه ونصحوه وقالوا له: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين؛ فاستكبر وقال بأن الله تعالى إنما أعطاه هذا المال لعلمه أنه يستحقه ولمحبة الله له.

فماذا كان مصير قارون؟ لقد خرج ذات يوم على قومه في موكب عظيم وزينة باهرة مفتخرًا على قومه، فخسف الله جلَّ جلاله بقارون وبداره الأرض، فما أغنى عنه ماله من الله شيئًا. قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾[2].

بل لولا وجود كثير من الناس الذين إذا رأوا الكافر قد وسَّع الله عليه ورزقه الأموال الطائلة يظنون أنه لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطي، أو يعتقدون أن ذلك لمحبة الله له فيختارون الكفر لأجل المال لرزق الله عزَّ وجلَّ الكافر أعظم كثيرًا مما رزقه من الأموال؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا

(١) سورة القصص، الآيتان: ٨١-٨٢.

(٢) سورة الهُمزة، الآيات: ٢-٩.

يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، وما ذلك أيضًا إلا لهوان الدنيا على الله، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع**»[3]؛ فمهما رزق الله الكافر من الأموال فذلك ليس إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تبارك وتعالى التي يعجل الله تعالى فيها للكافر حسناته التي يعملها في الدنيا مآكل ومشارب وملابس ومناكح ليوافي الآخرة وليس له عند الله عزَّ وجلَّ حسنة يجزيه بها، لأن الآخرة للمتقين خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم.

ثم هناك من الكافرين الذين رزقهم الله المال الكثير ولكنهم ينفقونه في محاربة الله ومحاربة دينه؛ فهؤلاء لا يعلمون أنهم ينفقون أموالهم ثم تذهب ثم يكون نصيبهم من ذلك التحسر والندم على كل درهم أنفقوه في محاربة دين الله؛ لأن أموالهم لم تحقق الهدف الذي أُنفقت من أجله و لم تنفع في إطفاء نور الله لأن ذلك مستحيل، ومثلهم في ذلك كمثل من ينفخ الهواء بفمه يريد أن يطفئ الشمس،

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣-٣٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

obeikandl.com

قال جلَّ جلاله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[1]؛ ثم هم بعد كل هذا الخزي في الدنيا سيُغلبون ويوم القيامة إلى جهنم يُحشرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[2].

ثم إن مصير الكفار يوم القيامة بئيس جدًا، ولن تغني عنهم أموالهم شيئًا أو تفديهم من العذاب، بل إنهم لو أنفقوا ما في الأرض جميعًا ليفتدوا به من عذاب الله ما تقبل الله منهم، بل لا محيص ولا مناص من العذاب الأليم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وبالجملة فإن من يختار الفاني على الباقي ويختار الدنيا العاجلة على الآخرة فإن الله تعالى يعجِّل له فيها ما يشاء، إذا أراد عزَّ وجلَّ له ذلك، ثم تكون عاقبته

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٨-٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

جهنم يدخلها مبعدًا حقيرًا ذليلاً مهانًا؛ قال جلَّ جلاله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

ومن اختار الدار الآخرة وما فيها من النعيم، وعمل لها عملها من العبادات والطاعات واتباع رسول الله ﷺ وهو مؤمن مصدق بالثواب والجزاء فأولئك كان سعيهم مقبولاً مشكورًا ومضاعفًا، والله عزَّ وجلَّ يرزق من اختار الدنيا ومن اختار الآخرة وما كان رزق الله تعالى ممنوعًا ولا يستطيع أن يرده أحد عن أحد، وإذا كان الله تعالى قد فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق في الدنيا فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم بين ذلك فالدرجات والتفضيل في الآخرة سيكون أكبر مما كان في الدنيا لصالح المؤمنين، فالكافر وإن وسَّع الله عليه الرزق في الدنيا مرة، وقتَّر على المؤمن مرة؛ وفاوت بينهما في الرزق، فالآخرة هي للمؤمنين وتقسم لهم بحسب أعمالهم التي عملوها لها، وليس للكافر فيها نصيب إلا نصيب العذاب في جهنم، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٨-٢١.

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1]، وسيكون التفاوت والتفضيل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين أكبر؛ فمنهم من يكون في الدرجات العلى من الجنة، ومنهم من يكون في الدركات السفلى من النار؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

obeikandl.com